

كليات كلية ودمنة

1

فِي خِدْمَةِ الْأَسَدِ

تقدم : أ. شريف الشريف، أمين الصندوق

ريشة : د. محمد عبد الله بن عيسى

سید الطائفة، ا. ح. محمد بن عبد السلام

المجلس الأعلى للدراسات والبحوث

© 2005 Blackwell Publishing Ltd
Journal of Internal Medicine 258: 105–114

جلس الملك (ديشليم) يُنصِتُ باستمِتاحٍ إلى حديثِ وزيرِهِ ومُستشارِهِ
 الحكيم (بيديبا) الفيلسوفِ ..
 وأخذ (بيديبا) يُحدِثُهُ عَنِ الصَّدَاقَةِ والاصْدِقاءِ ، وحُقوقِ كُلِّ صَديقٍ على
 صَديقِهِ ، ووَاجِبَاتِهِ نَحْوَهُ ، حَتَّى نَدُومِ الصَّدَاقَةِ بَيْنَهُمَا ..
 وَكَيْفَ أَنَّ الصَّديقَ الحَقِيقِيَّ - إِذَا اخْتَلَصَ لِصَديقِهِ يَكُونُ أَصْنَفِي مِنَ
 الاخِ الشَّقِيقِ ، وَيَحِقُّ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَأْتِمِنَهُ عَلَى أَدَقِّ اسْتِرارِ حَيَاتِهِ ؟
 وَلِلَّذَا يَتَغَيَّرُ عَلَى السَّرْعِ أَنْ يَدْفُقَ فِي اخْتِيارِ أَصْدِقاءِهِ ، لِأَنَّ الصَّديقَ
 الخَيْرَ يَهْدِي إلى طَريقِ الحَقِّ ؟
 وَكَيْفَ أَنَّ الصَّديقَ المُخْلِصَ يَكُونُ كَالْعَمَلَةِ النَّائِرَةِ الَّتِي تَرْدَادُ قِيَمَتُهَا
 عَلَى مَرِّ الأَيَّامِ ، وَلِذَلِكَ لَا يَتَّبَعِي التَّفَرِيطُ فِيهَا بِسَهولَةٍ ؟



فَلَمَّا انْتَهَى (بَيْدَبَا) الْفِيلَسُوفُ مِنْ كَلَامِهِ نَظَرَ إِلَيْهِ (نَبْسَلِيمُ)
الْمَلِكُ قَائِلًا :

- قَدْ تَحَدَّثْتَ فَأَجَدْتُ الْحَدِيثَ عَنِ الصَّدَاقَةِ وَالْأَصْدِقَاءِ ..
وَالْآنَ أَرِيدُ مِنْكَ أَيُّهَا الْحَكِيمُ أَنْ تَضْرِبَ لِي مَثَلًا لِصَدِيقَيْنِ
خَمِيمَيْنِ مُتَحَابِّينِ ، يُوقِعُ بَيْنَهُمَا حَاسِدٌ كَذُوبٌ مُخْتَالٌ ، حَتَّى
تَتَحَوَّلَ صَدَاقَتُهُمَا إِلَى شُحْنَاءَ ، وَعَدَاوَةٍ وَبَغْضَاءٍ ..

فَقَالَ (بَيْدَبَا) الْفِيلَسُوفُ :

- إِذَا أَوْقَعَ شَخْصٌ حَاسِدٌ كَذُوبٌ مُخْتَالٌ بَيْنَ صَدِيقَيْنِ
خَمِيمَيْنِ مُتَحَابِّينِ ، أَحَالَ صَدَاقَتَهُمَا وَمَحَبَّتَهُمَا إِلَى
عَدَاوَةٍ وَبَغْضَاءٍ ، وَأَثَارَ بَيْنَهُمَا الشُّحْنَاءَ ، فَتَنَقُّطَ
صَدَاقَتُهُمَا ، وَيَتَحَوَّلَ كُلُّ مَيِّمَةٍ إِلَى غَدْوٍ لِلْآخِرِ .. وَأَنَا
أَضْرِبُ لَكَ مَثَلًا لَذَلِكَ فِي قِصَّةٍ ، عَسَى أَنْ تَكُونَ فِيهَا
الْعِظَةُ وَالْعِبْرَةُ ..



مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ كَانَ لِرَجُلٍ ثَلَاثَةُ أَبْنَاءَ ..

كَانَ الرَّجُلُ قَدْ صَارَ شَيْخًا ، وَكَانَ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ ..

وَكَانَ ابْنَاؤُهُ قَدْ بَلَغُوا سِنَ الرِّشْدِ ، وَبِزَعْمِ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمْ قَدْ احْتَرَفَ حِرْفَةً ، أَوْ تَعَلَّمَ صِنْعَةً يَتَكَسَّبُ مِنْهَا ، فَأَخَذُوا يُتَفَقِّحُونَ مِنْ مَالِ آبِيهِمْ ، حَتَّى كَادُوا يُفْقُونَهُ ..

فَلَمَّا رَأَى الْآبُ أَبْنَاءَهُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ، لَمْ يَنْجِبْهُ مِنْهُمْ ذَلِكَ ..

وَلِذَلِكَ جَمَعَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ :

- إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ عَاقِلٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، عَلَيْهِ أَنْ يَسْعَى إِلَى تَحْقِيقِ ثَلَاثَةِ أَهْدَافٍ :
سِعَةً فِي الرِّزْقِ ، وَمُنَازِلَةً مُحْتَرَمَةً بَيْنَ النَّاسِ ، وَعَمَلٌ خَيْرٌ مِنْ أَجْلِ الْآخِرَةِ ..



فقال الابن الأكبر :

- صدقت يا أبى .. هذا ما يجب أن يسعى إليه كل عاقل فى هذه الحياة ..

واستمر الأب قائلاً :

- ولكن يحقق المرء هذه الأهداف فإن عليه أربعة واجبات يجب أن يقوم بها : اكتساب المال بالحلال .. ثم استثمار هذا المال وحسن القيام عليه حتى ينمو .. ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ، ويقوم بحاجة الأهل والإخوان والمحتاجين ، فيعود عليه نفعه فى الدنيا والآخرة ..

فقال الابن الأوسط :

- هذا حق يا أبى ..





وأضاف الأب شارحا :

- فمن لا يعمل لن يكون له مال يعيش منه .. ومن اكتسب المال ، ولم يحسن القيام عليه ضاع المال ، وبقي صاحبه بلا مال .. ومن اكتسب المال ولم يستثمره حتى ينميه ويكثره ، فقد المال حتى ولو كان ينفق منه بحرص وحذر .. ومن كان له مال ولم ينفقه من أجل نفع الدنيا والآخرة ، كان كالفقير المغدوم ، الذي لا مال له .. فقال الابن الأصغر :

- قد أحسنت يا أبي .. يجب على كل منا أن يبحث لنفسه عن مهنة يتكسب منها رزقه .

وقال الابن الأكبر :

- أنا سأطلق إلى أرض (ميون) لأجرب حظي هناك ..

فوافقه الأب ، ودعا له بالسلامة والرزق ..

تجهز الابن الأكبر للسفر ، وانطلق مع بغض أصدقائه
في مركبة يجرها ثوران ، أخذها كان يسمى (شربة)
والآخر كان يسمى (بديّة) ..

ومرت المركبة في طريقها بمكان موحل ، فيه طين كثير
لزوج ، فغاصت أقدام (شربة) في الطين وسقط فيه ..

وحاول الابن الأكبر وأصدقاؤه أن يخرجوا الثور من
الطين ، فلم يفلحوا .. ولما يئسوا من ذلك ، قال الابن
الأكبر لأحد أصدقائه :

- سنمضي نحن في طريقنا بالمركبة بثور واحد
هو (بديّة) ونبقى أنت هنا لحراسة الثور (شربة)
حتى يجف الطين من حول أقدامه ، فنخرجه
ونلحق بنا في
(ميون) ..



وَأُطْلِقَ الْإِبْنُ الْأَكْبَرُ بِالْمَرْكَبَةِ مَعَ بَقِيَّةِ أَصْدِقَائِهِ ، بَيْنَمَا بَقِيَ
ذَلِكَ الصَّدِيقُ الَّذِي غِيَنَهُ لِحِرَاسَةِ ثَوْرِهِ (شَيْثْرِيَّة) ..

فَلَمَّا بَاتَ الصَّدِيقُ لَيْلَتَهُ فِي حِرَاسَةِ الثَّوْرِ ، شَغَرَ بِالصَّدِيقِ
وَتَبَرَّمَ مِنْ وَحْشَةِ الْمَكَانِ ، فَتَرَكَ الثَّوْرَ فِي الْوَحْلِ ..
وَأُطْلِقَ ، حَتَّى لَحِقَ بِالْإِبْنِ الْأَكْبَرِ وَأَصْدِقَائِهِ ، فَاخْتَبَرَهُمْ
أَنَّ الثَّوْرَ قَدْ مَاتَ ..

أَمَّا الثَّوْرُ (شَيْثْرِيَّة) فَإِنَّهُ عِنْدَمَا وَجَدَ نَفْسَهُ وَحِيدًا بِلا
أَنْيَسٍ أَوْ رَفِيقٍ ، أَخَذَ يُجَاهِدُ مُحَاوَلًا حَتَّى اسْتَطَاعَ
أَنْ يُخَلِّصَ أَقْدَامَهُ مِنَ الطِّينِ اللَّزْجِ .. ثُمَّ انْطَلَقَ
يَبْحَثُ عَنْ طَعَامٍ ، فَوَجَدَ مَرْجًا وَاسِعًا فِيهِ عُشْبٌ
أَخْضَرٌ ، وَجَدُولُ مَاءٍ عَذْبٍ ، فَاخَذَ يَأْكُلُ حَتَّى شَبِعَ ،
ثُمَّ شَرِبَ ، حَتَّى ارْتَوَى ..



وَأَقَامَ (شَتْرِبَةً) فِي الْمَرْجِ حَتَّى سَنَمِنَ وَأَمِنَ مِنَ الْخَوْفِ ..
ثُمَّ أَخَذَ يَخْوَرُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالْخَوَارِ ..

وَكَانَ قَرِيبًا مِنَ الْمَرْجِ غَابَةِ صَغِيرَةٌ ، فِيهَا أَسَدٌ ضَخْمٌ عَظِيمُ
الْهَيْبَةِ ، وَقَدْ انْتَفَتَحَتْ حَوْلَهُ السَّبَاعُ وَالذَّنَابُ وَالْتُعَالِبُ وَالْفُهُودُ
وَالنُّمُورُ وَبَنَاتُ أَوَى وَغَيْرُهَا مِنَ الْخَيَوَانَاتِ الضُّوَلَى وَالْوَحُوشِ
الْكُؤَاسِرِ ..

وَكَانَ الْأَسَدُ مُلْكًا عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْخَيَوَانَاتِ ، يَأْمُرُ وَيَنْهَى كَيْفَ
شَاءَ ، وَالْجَمِيعُ يَأْتِمِرُونَ بِأَمْرِهِ وَيَطِيعُونَهُ خَوْفًا مِنْهُ ، وَيَأْتُونَهُ
بِطَعَامِهِ كُلُّ يَوْمٍ خَوْفًا مِنْهُ ..



وكان الأسد مقيماً في منزله ، لا يبرحه أبداً ، ولم يكن قد رأى
ثوراً قبل ذلك ، ولا سمع صوته ، فخاف في نفسه ، وتعجب من
هذا الصوت الغريب المذوى الذي سَمِعَهُ ، لكنه لم يحاول أن
يظهر ذلك لمن حوله من الوحوش ، حتى لا تحقير جهله ، ولا
تعود ثباته ..

وكان من جملة خدام الأسر وأتباعه المخلصين
حيوانان من بنات أوى ، أحدهما هو (كيلة) والآخر
هو (دمنة) ..

كان (كيلة) و (دمنة) لا يترحان باب الأسر ، وكان
كل منهما ذا دهاء وذكاء ، وعلم وحكمة ..



فقال (بمنة) لآخيه (كليلة) :

- ألم تلاحظ يا أخى أن الأسد مقيم باستمرار
فى منزله ، لا يترحه أبدا ؟ يجب أن ننصحه بالخروج
من منزله حتى يرى الدنيا ..
فقال له (كليلة) مستنكرا :

- من نكون نحن حتى نسأل هذا السؤال ، وننحى
فيما يجب على ملكنا أن يفعله أو لا يفعله ؟ لستنا
وزيرين ولا مستشارين مقربين من الأسد ، حتى نناقش
هذا الأمر .. ما نحن إلا خادمين طليعين ، وحارسين
يقظن بباب الملك ، نفعل فقط ما يأمرنا به ..
فقال (بمنة) :

- اعرف ذلك يا أخى ، ولكن على المرء أن يسعى
ليرتفع من منزلته الوضيعة ، إلى منزلة رفيعة ، يسر بها
الصديق ، ويكيد العدو ..



فَقَالَ (كَلِيلَةُ) نَاصِحًا :

- إِنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَنْزِلَةً وَقَدَرًا وَشَأْنًا ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَقْنَعَ بِهَا ، لِأَنَّ مَنْ نَظَرَ إِلَى مَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْهُ أَتَغَبَّ نَفْسَهُ ، وَتَغْصَنَ عَيْشَتَهُ ..

فَقَالَ (بِمَنْة) :

- كَمْ مِنْ وَضِيعٍ ارْتَفَعَ إِلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ ، وَكَمْ مِنْ رَفِيعِ الْمَقَامِ هَوِيَ مِنْ غَلِيَابِهِ .. الْمَرْءُ يَا أَخِي تَرْفَعُهُ مَرْوَعَتُهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ .. وَمَنْ لَا مَرْوَعَةَ لَهُ يَحْطُ نَفْسَهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ .. وَنَحْنُ بِمَرْوَعَتِنَا أَحَقُّ بِالْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ ..

فَقَالَ (كَلِيلَةُ) :

- ثَرِيدُ أَنْ تَتَقَرَّبَ مِنَ الْأَسَدِ ، حَتَّى يَقْلُدَكَ مَنَصِيبًا رَافِعًا ، أَوْ يَجْعَلَكَ أَحَدَ مُسْتَشَارِيهِ ۞

وَقَالَ (بِمَنْة) :

- هَذِهِ قُرْصَتُنَا ، وَيَحِبُّ الِاتِّصَافَ بِهَا ..



فَقَالَ (كَلْبِلَةُ) مُسْتَشْكِرًا :

- كَيْفَ تَطْلُعُ فِي ذَلِكَ ، وَلَسْتَ بِصَاحِبِ سُلْطَانٍ
أَوْ مَرْكَزٍ كَبِيرٍ ؟

وَقَالَ (دِمْنَةُ) :

- الرَّجُلُ الشَّدِيدُ الْقُوَى لَا يُعْجِزُهُ الْحِمْلُ الثَقِيلُ .. الْمُهْمُ
أَنْ أَكُونَ قَرِيبًا مِنَ الْأَسَدِ ..

فَقَالَ (كَلْبِلَةُ) نَاصِحًا :

- ثَلَاثَةُ أُمُورٍ لَا يَجْرَوُ عَلَى الْإِقْدَامِ عَلَيْهَا إِلَّا أَهْوَجُ ،
وَلَا يَنْجُو مِنْهَا إِلَّا قَلِيلٌ : صُحْبَةُ السُّلْطَانِ ، وَائْتِمَانُ الْأَخْفَقِ
عَلَى الْأَسْرَارِ ، وَالْإِقْدَامُ عَلَى شَرْبِ السَّمِّ لِبَجْرِيَّتِهِ ..
فَقَالَ (دِمْنَةُ) :

- صَدَقْتَ ، لَكِنَّ الرَّجُلَ الْفَاضِلَ لَا يَجِبُ أَنْ يَرَى
إِلَّا فِي أَحَدٍ مَكَائِينَ : إِمَّا مَعَ الْمُلُوكِ مُكْرَمًا ، وَإِمَّا مَعَ
الْمُتَّقِينَ مُتَعَبِدًا لِلَّهِ ذَاكِرًا ..



وحاولَ (كَلْبِلَةُ) جَاهِدًا أَنْ يَرُدَّ أَخَاهُ (بِمَنَّة) عَنْ رَغْبَتِهِ
فِي التَّقَرُّبِ مِنَ الْأَسَدِ وَمُصَادَقَتِهِ ، لَكِنْ (بِمَنَّة) جَعَلَ أَذُنًا مِنْ
طِينٍ ، وَأَذُنًا مِنْ عَجِينٍ ، فَلَمْ يَسْتَمِعْ إِلَى نَصَحِهِ ، وَانْطَلَقَ إِلَى
دَاخِلِ الْمَنْزِلِ لِلِقَاءِ الْأَسَدِ ..

اسْتَأْذَنَ (بِمَنَّة) وَدَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ
الْأَسَدُ مُسْتَعْكِرًا ، وَنَظَرَ إِلَى بَعْضِ جَلَسَائِهِ قَائِلًا :
- مَنْ هَذَا الشَّخْصُ ؟

فَأَجَابَهُ أَحَدُ جَلَسَائِهِ قَائِلًا :

- إِنَّهُ (بِمَنَّة) ابْنُ فُلَانٍ ..

فَالْتَفَتَ الْأَسَدُ إِلَى (بِمَنَّة) قَائِلًا :

- كُنْتُ أَعْرِفُ أَبَاكَ .. أَتَيْنَ أَنتَ الْآنَ ؟



فقال (دُمْنَةُ) :

- انا مِنْ خَدَمِكَ الْمُخْلِصِينَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ ، ولذلك فأنا مُلَازِمٌ لِيَابِكَ لِكُلِّ نَهَارٍ ، رجاءُ أَنْ تَحْتَاجَ إِلَيَّ فِي أَمْرٍ خَطِيرٍ أَوْ مَشُورَةٍ ، فَأَعِينَكَ فِيهِمَا بِرَأْيِي ، أَوْ أَبْدِلَ لَكَ نَفْسِي ..

فظَنَّ الْأَسَدُ أَنَّ لَدُنِّي (دُمْنَةُ) نَصِيحَةً أَوْ رَأْيًا مُفِيدًا جَاءَ يُشِيرُ عَلَيْهِ بِهِ ، ولذلك التفتتُ إِلَيَّ جَلَسَاتِهِ قَائِلًا :

- إِنَّ الْعَالَمَ الْحَقِّ ، ذَا الْمُرُوءَةِ وَالْمَشُورَةِ وَالرَّأْيِ غَالِبًا مَا يَكُونُ مَعْمُورًا ، لَا يَغْرِهُ أَحَدٌ ، لَكِنْ يَبْدُو أَنَّ مَنَزِلَةَ (دُمْنَةُ) قَدْ أَنْ لَهَا الْأَوَّانَ ، حَتَّى تَعْلُو وَتَرْتَفِعَ ..

فَلَمَّا أَتَرَكُ (دُمْنَةُ) أَنَّ الْأَسَدَ قَدْ أَعْجَبَ بِهِ قَالَ :

- هَذَا يَزِيدُنِي إِصْثَارًا عَلَى خَدَمَتِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ، وَثِقْ بِأَنْتَنِي لَنْ أَقْصَرَ فِي ذَلِكَ الرَّأْيِ النَّافِعِ وَالْمَشُورَةِ الصَّادِقَةِ لَكَ ..

فقال الأسدُ :

- هَذَا مَا أَمَلُهُ ..



وَيَبْدُو أَنْ (دِمْنَةً) قَدْ رَأَى نَظَرَاتِ الْحَسَنِ فِي أَغْنَيْنِ الْحَاضِرِينَ ،
فَارَادَ أَنْ يُعَرِّفَهُمْ أَنْ مَا نَالَهُ مِنْ إِحْرَامِ الْمَلِكِ لَهُ ، يَرْجِعُ إِلَى عِلْمِهِ
وَعَقْلِهِ ، وَلَيْسَ لِأَنَّهُ كَانَ يُعْرِفُ أَبَاهُ فَقَالَ :

- إِنَّ الْمَلِكَ لَا يُقَرِّبُ الْحَاسِ مِنْهُ لِمَعْرِفَةِ آبَائِهِمْ وَقُرْبِهِمْ
مِنْهُ ، لَكِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ بِمَا عِنْدَهُ ، وَبِمَا هُوَ أَهْلٌ لَهُ ..

وَيَنْظُرُ إِلَى مَنْدِي مَا يَنْذُلُهُ لَهُ مَنْ رَأَى صَائِبَ وَمَشُورَةَ نَافِعَةٍ
فَلَمَّا انْتَهَى (دِمْنَةً) مِنْ كَلَامِهِ ، زَادَ الْأَسَدُ فِي إِحْرَامِهِ ،
وَقَرِيْبَهُ مِنْهُ فِي مَجْلِسِهِ ، وَأَعْدَقَ عَلَيْهِ الْهَدَايَا ، وَأَصْبَحَ
يَسْتَشِيرُهُ فِي كُلِّ أَمُورِهِ ، وَلَا يَسْتَعْنِي عَنْ مَجَالِسَتِهِ ..

وَهَكَذَا التَّحَقَّقَ (دِمْنَةً) بِخِدْمَةِ الْأَسَدِ ، فَكَيْفَ سَارَتِ الْأُمُورُ
مَعَهُ ؟ وَهَلْ يُوَفَّقُ فِي بَدْلِ الرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ لِلْأَسَدِ ، أَمْ أَنَّهُ
سَيَكُونُ لَهُ رَأْيٌ آخَرُ ؟

(تَمَّتْ)

الكتاب القادم : الأسد والثور

رقم الكتاب : ٣٣٣٠

الطبعة الأولى : ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

